مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 359-376

# سؤال التجديد في فكر مالك بن نبي -عناصر للتحليل-

# The question of renewal in Malek Bennabi's thought: Elements of analysis

بلعباس لبعير[1]* شعدو كريم[2]

[1] جامعة جيلالي ليابس(الجزائر).

البريد الالكتروني: labair44_abbes@yahoo.fr

[2] جامعة جيلالي ليابس(الجزائر).

البريدي الالكتروني: chadou.karim@gmail.com

| تاريخ الإيداع | تاريخ القبول | تاريخ النشر |
|---|---|---|
| 2022/02/27 | 2022/03/26 | 2022/04/16 |

**الملخص**: وفق مقاربة سوسيولوجية تعتمد منهجية التفكيك وإعادة البناء جاءت هذه الورقة البحثية المتواضعة لقراءة وتحليل ماهو مرتكزات معرفية أساسية وما هو منطلقات منهجية جوهرية قام عليها فكر مالك بن نابي في تناوله لإشكالية نعتقد أنها جد مهمة وأكثر من ضرورية تتعلق بسؤال التجديد والتغيير في علاقته بواقع أزمة التخلف والتأخر المتعددة الأبعاد والمظاهر التي عرفتها ولازالت تعرفها المجتمعات العربية منذ فترة ما بعد الموحدين. القيمة المعرفية والقوة العلمية لهذا الطرح تظهر وترتكز من حيث علاقة الارتباط الشرطي والوظيفي ما بين إمكانية نجاح سيرورة عملية التجديد كخيار وكأسلوب تتبناه وتعتمده مختلف القوى الفاعلة داخل المجتمع وفلسفة المشروع الحضاري كسياق للانتماء أولا وكغاية للتحقيق ثانيا.

***الكلمات المفتاحية:*** *البناء الحضاري ؛ التجديد ؛ التاريخانية*

**Abstract:** This modest research article is based on a sociological approach which it self relies on the method of deconstruction and reconstruction of the cognitive foundations and the fundamental methodological premises on which Malik Bennabi's thought was based to deal with a problem that we consider very important and more than necessary linked to the question of renewal and change in its relation to the reality of the multidimensional crisis of underdevelopment that Arab societies have known since the Almohad period.

* **المؤلف المرسل**

The cognitive value and the scientific strength of this analysis appear and depend on the conditional and functional link between the possibility of success of the renewal process as a choice and as a method adopted by the different active forces of society and the philosophy of the civilizational project as context of belonging first and as end of achievement on the other.

***Keywords:*** *Civilizational construction ; renewal historical*

**مقدمة:**

حاجة المجتمعات العربية إلى مشروع نهضوي وحداثي قوي وعملي يمنحها فرصة الخروج من نفق التخلف والتخلص ولو تدريجيا من مظاهر التأخر أصبح يشكل اليوم إلزاما وضرورة أكيدة لا مفر منها ولا تأجيل لها بسبب التحولات الكبرى التي أصبح يعرفها العالم في مستوى نظام تفاعل علاقات القوى المتعددة و المتناقضة التي أصبحت تتوجه أكثر نحو فرض أسلوب الهيمنة المطلقة والأحادية وسيادة منطق التفعيل والتحكم الشامل والوسع في جميع أدوات وآليات اشتغال وتشغيل نظم المعارف والفرض المستمر والمخطط لمنظومة كلية من معايير وقواعد التطور التاريخي تسعى من خلالها دول المركز الى الإلغاء وعدم الاعتراف بالاختلافات والتنوعات البنيوية والقيمية بل تذهب إلى حد السيطرة على مختلف منابع ومصادر القوة والثروة مهما كان شكلها وأين ما كان موقعه. كل هذه التحديات في مستواها الخارجي وحتى الداخلي يجعل تلك المجتمعات العربية التي تعيش حالة من التخلف والتأخر في جميع المجالات معرضة في أي وقت إلى أزمة انسداد بسبب الانعكاسات السلبية للواقع الباثولوجي الذي تعرفه، فيدفع بها ذلك إلى الشعور بأنها في وضعية مقلقة ومحرجة وأنها مهددة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في عناصر وشروط وجودها وسيادتها وفي منطلقات استمراريتها ومستقبلها، أضف إلى ذلك الفشل المتكرر الذي عرفته هذه الدول منذ مرحلة ما بعد الاستقلال في محاولة قيامها بتجارب نهضوية حقيقية أو في إنجازها لمشاريع تنموية فعلية طبعا ليس في شكلها البنائي الهيكلي وإنما في أسلوبها الكيفي والنوعي.

خصوصية هذا الواقع المتأزم والخطير وخصائص معطياته التاريخية والبنائية والتنظيمية المتميزة بنوع من الهشاشة بل أن حجم وقوة الرهانات التي تنتظر هذه المجتمعات يدفع بنا من الناحية المعرفية البحثية إلى ضرورة إعادة التفكير والبحث ليس في أسباب الفشل التي منعت من الوصول إلى إنتاج نقلة نوعية وعملية بعد كل هذا المسار التاريخي الطويل أو حتى في عوامل التخلف أو في انتاجاته وانعكاساته الباثولوجية على مكونات واقع المجتمع البنيوية والوظيفية لأن هذه المسالة أخذت من الاهتمام والانشغال والتفكير ما يكفي سواء عند النخب المثقفة أو حتى بالنسبة للمؤسسات والمنظمات الرسمية. وإنما من مستوى الغوص في عمق ذلك التراكم من التفكير وفي محتوى مادة ذلك الفكر الذي اهتم أصحابه بتفكيك وفهم إشكالية تخلف المجتمعات العربية من حيث الأبعاد المعرفية المشكلة لبنيته ولما أنتج علميا وما استنتج موضوعيا حول موضوع وسؤال التجديد والتغيير تحديدا.

لقد أضحى التوجه من جديد نحو إعادة التفكيك والقراءة للفكر العربي المهتم بموضوع التجديد أمر ضروري شريطة أن يكون بأسلوب تحليلي ونقدي ليس من باب التذكير والتكرار ولا حتى مثل ما يقول مالك بن نبي من أن نعطي للقارئ شهادة حول التاريخ لأن ما ينتظره هذا الأخير فعلا هو التحليل أين يتم تناول الأشياء من حيث منبعها وليس شكلها (Bouarfa, 2019, P 31).

اذن ينبغي تناول المسألة من حيث غاية التمحيص والتثمين في بعدها ومعناها الاقتصادي الذي يطرح قيمة مضافة عبر الاشتغال العلمي الموضوعي على ذلك الكم المعتبر من مخزون الإنتاج المعرفي الأكاديمي لمجموعة من نماذج الباحثين العرب،حتى نقف عند مواقع القوة والضعف في محتوى مادته النظرية وفي أسلوب ومنهجية تناوله البحثي وحتى نكشف ونتعرف على مواقع الخلل والعطب ضمن سيرورة نماذج تلك التجارب النهضوية والتنموية التي للأسف فشلت في إنجازها مجتمعاتنا العربية.

**1. من هو مالك بن نبي؟**

نموذج تجربة التجديد العربي في مستواها الفكري والمعرفي التي اقترحناها و حتى تكون موضوع قراءة واشتغال من طرفنا تتعلق بالمشروع الحضاري لصاحبه مالك بن نبي، هذا الاختيار تم التأسيس له انطلاقا من المبررات العلمية والعملية التالية:

1 - أن مالك بن نبي يعتبر في نظر الكثير من الدارسين والباحثين أحد رواد المفكرين العرب في القرن العشرين لما له من انتاج علمي في ميدان الأبحاث حول واقع المجتمعات العربية ولما قدمه من رؤية وكيفية منهجية تحليلية في فهم إشكالية تخلف هذه المجتمعات اقتربت في بعض جوانبها من تلك التي طرحها ابن خلدون.

2 - أن المعني لديه العديد من المؤلفات التي تصب مضامينها الفكرية في إشكالية مشروع التجديد والتغير بشكل عام وفي طرق وأدوات تحقيق وتجسيد هذا المشروع ضمن سياق المجتمعات العربية والإسلامية ضمن مرحلتها التاريخية المعاصرة وفق دلالات ومعاني نعتقد إنها أقرب إلى الواقع.

3 - أبحاث مالك بن نبي تشمل في جانبها المعرفي وتدور في بعدها التحليلي حول مسألة نعتبرها جوهرية وأساسية في علاقتها بهدف فريق المستقبل العربي أنها تتعلق بمشروع البناء الحضاري في المجتمعات العربية بكل ما يحمله هذا المشروع من أبعاد سياسية واقتصادية وتعليمية وحتى إنسانية.

4 - مالك بن نبي أحد المفكرين الذي ربط مسألة البناء الحضاري بتوفر الشروط الثقافية وعلاقتها بالرأسمال البشري كاستثمار أساسي لقد أكد في الكثير من أقوله على أهمية وأولوية عالم الأفكار في تجسيد التغير والتطور في المجتمعات.

5 - فكر مالك بن نبي اجتمعت فيه العقول الثلاث التي كانت ميادين اهتمام واشتغال العديد من الباحثين العرب أنها العقل الديني التراثي و العقل السياسي والعقل المادي الحضاري.

6 -فكر مالك بن نبي يندرج ضمن المقاربة الوظيفية التطورية للحضارة عبر مراحلها الثلاث بداية بالولادة ثم التطور والازدهار وأخيرا التراجع والاندثار أنه ينظر للمجتمع في سياقه الديناميكي الحركي كحقيقة تاريخية وبشرية.

7 - أفكار مالك بن نبي شكلت إطارا مرجعيا اقتدت به بعض الدول وطبقت قواعده مثل ماليزيا التي حققت ثورة فكرية في منظومتها التعليمية ونقلة نوعية في نسقها الاقتصادي وفي تطورها الحضاري.

8 - تصور مالك بن نبي أوسع وأشمل استراتيجيا بدليل أنه يطرح فكرة التكتل الإسلامي المتمثل في الكومنولث الإسلام.

في البداية ينبغي الإشارة إلى نقطة منهجية وتنظيمية جد مهمة لقد تبين لنا بل تأكد لنا أنه من الصعب القيام بالاطلاع والجمع والتحليل لكل أفكار مالك بن نابي ومعظم ما جاء في محتواها من أفكار ومعطيات معرفية حول موضوع التجديد ضمن مقال واحد ووحيد بل من المستحيل قراءة ومناقشة كل محتوى انتاجه الفكري ومضمون أبحاثه جملة واحدة وفي فترة زمنية قصيرة.

خاصة وأن المشروع الفكري لمالك بن نابي تم كتابته وبلورة تفاصيله ضمن أكثر من 20 مقال وما يعادل 30 مؤلف بحث علمي معظمها ان لم نقل كلها كانت تعالج إشكالية تخلف المجتمعات العربية وفشلها منذ فترة ما بعد الموحدين في تحقيق بناء حضاري وتجسيد تجديد تاريخي لواقعها، بل كان التركيز فيها قائم على التفكير والتأمل في كيفية تجاوزها لهذه الوضعية عبر اعتمادها وقيامها بمشروع تجديد نهضوي.

أضف إلى ذلك الكثير من المقالات والأطروحات التي اجتهد أصحابها في التناول بالدراسة والبحث لفكر مالك بن نبي هي الأخرى متعددة ومتنوعة شملت العديد من المقاربات الفكرية والمنهجية ومست الكثير من التخصصات العلمية.

**2. الدلالة الوظيفية لسؤال التجديد عند مالك بن نبي:**

لقد اخترنا لهذه الورقة البحثية عنوان نعتقد أنه يحمل هاجس معرفي ضخم ومهم شكل اهتمام وانشغال الكثير من الباحثين والدارسين عبر سيرورة التطور التاريخي لمختلف المجتمعات البشرية. ولكم أن تلاحظوا وتدركوا أن هذه الصياغة تحمل الكثير من المعاني والدلالات بل تخفي شعور ووعي بعدم اليقين وعدم القدرة على امتلاك كل الحقيقة بجميع تفاصيلها وعناصرها هذه الصياغة تعكس حالة من القلق العلمي والشغف المعرفي والبحثي المستمر في التساؤل ومساءلة الموضوعات كشفا وتوضيحا لجانب من الغموض أو الابهام أو الجهل الذي يكتنف عقولنا وبحثا عن جزء فقط من الحقيقة الذي ينفلت من أيدينا.

تؤكد التجارب التاريخية للعديد من المجتمعات أن قوة الدول في مستوى تطورها وهيمنتها وفي قيمتها وفعاليتها من حيث نضام تفاعل علاقاتها وأسلوب إنتاج وإعادة إنتاج ممارساتها لا يقاس بحجم ما تمتلكه من موارد طبيعية أو إمكانيات تكنولوجية أو حتى قدرات مالية وإنما هو مرهون ومشروط بالكم المعتبر من الأسئلة التي تطرحها نخبها الفاعلة وبالقيمة العلمية والعملية لمحتواها الذي تحمله وتعكسه واقعيا وبالتكرار المستمر في تجديد هذا المحتوى. كل هذا يعطي معنى عن مدى ديناميكية هذه المجتمعات في تفكيرها وثقافتها وعن درجة استعدادها للتأقلم مع التحولات والتغييرات وبالتالي تمكنها من الحصول على المعرفة الجديدة والمتجددة. كل هذه العناصر يعبر عنها مالك بن نبي في فكرة واحدة مفادها أن جوهر المسألة هو في مشكلتنا العقلية فنحن في نظره لا نزال نسير ورؤوسنا في الأرض وأرجلنا في الهواء وهذا القلب هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا (بن نبي، 1987، ص 36).

قد لا نختلف إذا قلنا أن ممارسة الباحث لفعل التساؤل ضمن سياق الدارسات الأكاديمية بخصوص مختلف الموضوعات يشكل منطلقا قاعديا وإطارا مرجعيا لا بد منه

ضمن مراحل وخطوات الالتزام والتقيد بقواعد وضوابط بروتكول التنظيم والتطبيق المنهجي بل أنه يعكس قيمه أساسية وأهمية جوهرية ضمن سيرورة عملية التفكير العلمي بحثا عن الحقيقة النسبية واكتشافا للمجهول وإزالة للغموض والإبهام لكن هذه المسالة قد تفتح أفاقا أخرى تجرنا نحو الكشف عن إضافة ثانية إذا ما أخذنا موضوع سؤال التجديد من منظور المقاربة الكيفية الكلية التي اعتمدها المفكر مالك بن نابي وإذا ما وضعن عملية طرحه وكيفية التعامل معه ضمن السياق التاريخي والاجتماعي لواقع لتلك المجتمعات العربية.

إن معطى أداة الاستفهام وفق هذا السياق الخاص لا يعكس دلالة بنائية معرفية فقط أو يخدم غاية تنظيرية بحتة تعتمد الاستغلال والتوظيف النظري التجريدي لمجموعة من المفاهيم والمصطلحات بالقدر ما تهدف عملية طرحه وتناول أبعاده الى تلبية حاجة وظيفية إجرائية ذات آفاق مستقبلية يتم عبرها البحث عن البديل العملي وعن تحديد الخيار المنطقي الأنسب الذي يحقق غاية الانتقال النوعي نحو الأحسن والأفضل وتمكن من التغيير الكيفي في واقع الأفراد و المجموعات الاجتماعية.

إن منبع هذا التوجه الذي يؤسس ويفعل محتوى الاستفهام لا يرتبط بما هو عنصر للحيرة والدهشة في صورته التجريدية وفي أسلوبه الفلسفي بالقدر ما يرتبط منطقه الاشتغالي ويتعلق بالخوف والحذر من استمرارية وضعية غير مرغوب فيها يعيشها المجتمع في واقعه وتمارس عبر منطقها الداخلي المهيمن تهديدا في توازن نظام تفاعل العلاقات المتبادلة وتأثيرا في شروط وقواعد استقرار تواجد الأفراد، من جهة أخرى أنه يعكس ذلك الدافع المحرك والمفعل لمبدأ الرفض والمقاومة لما هو وضعية للتأخر والتخلف والعمل على تجاوز انتجاتها وانعكاساتها. إذن الغاية والأهمية قد تتجاوز في نتائجها وصورها الفهم من أجل الفهم أو البحث من أجل البحث لتنتقل إلى ما هو تفكير وبحث عن أدوات وآليات تغيير واقع متأزم

### 3. سؤال التجديد وسياق البناء الحضاري

تمثل مهمة التفكير وفق قواعد منهجية وأسس علمية في كيفية بناء رؤية واضحة وتصور شامل بخصوص مشروع تجديد نهضوي عربي واضح المعالم والمنطلقات ومتكامل الأبعاد والمستويات وقوي الأهداف والمخرجات، مسألة جد معقدة ومركبة وعليه ما يهمنا من خلال تطرقنا لعنصر السياق ليس فقط التعرف على ذلك الاطار الابستمولوجي العام الذي تشكلت و تبلورت وتفاعلت داخله ومن خلاله مجموع المعطيات الفكرية والعناصر المعرفية للمفكر ولمختلف التي وظفها أي التنقيب في ماهية ومحتوى الإطار الفلسفي المفاهيمي الذي بنيا وفقه ووظف بموجبه الفكر التجديدي لمالك بن نبي بالقدر ما هو متعلق تحديدا بالتعريف بالخصائص المنهجية والكشف عن المؤشرات الفكرية التي تعطي تميز و اختلاف في أسلوب تناول هذا المفكر لموضوع أو لسؤال التجديد انطلاق من الواقع المتأزم للمجتمعات العربية و ما هي خصوصية منهجية التفكير و القراءة لأبعاد ومعطيات ذلك السؤال.

ما يهمنا من خلال هذا السياق ليس فقط التعرف على ذلك الإطار المعرفي النظري العام الذي تشكلت وتبلورت وتفاعلت داخله ومن خلاله مجموع معطيات وعناصر فكرة التجديد عند هذا الباحث بالقدر ما هو الكشف والتعريف بخصائص وخصوصيات هذا السياق التي تعطي تميز في أسلوب تفكير وتناول المفكر لموضوعاته وخصوصية منهجية تفكيره وتفاعله مع إبعاد ومؤشرات تلك الموضوعات، من جهة أخرى نسعى للكشف عن ماهية الفكرة الملهمة والمؤسسة التي يدور و يشتغل حولها وبموجبها محتوى المادة المعرفية والفكرية لموضوع التجديد بالنسبة لهذا المفكر.

يخبرنا مالك بن نبي أن مشكلة أي شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية.وبالتالي إشكالية تخلف المجتمعات العربية في الفترة لما بعد الموحدين بل واستمرارية هذه الوضعية ترتبط من حيث تجلياتها الواقعية بما هو إبعاد ونهايات حضارية تشمل مختلف

المؤشرات المادية والفكرية و بالتالي لا يمكن أن تنحصر أو تقتصر عملية وصفها و الكشف عن عناصرها ومعطياتها فقط من خلال العامل الأخلاقي أو الديني أو الاقتصادي أو ... مع العلم أن الفكرة الحضارية ضمن هذا السياق تعبر في جوهرها عن قوة وقدرة المجتمع في الانتماء إلى التاريخ و القدرة و الفعالية في فرض الذات أمام باقي المجتمعات الأخرى. وهذا لن يتأتى إلى إذا كانت الحضارة تعبر حسب مالك بن نبي عن ذلك التنظيم المعين للمجتمع على قواعد أخلاقية تجعله يبلغ مستوى القدرة على مواجهة جميع أعبائه،لهذا أي مشروع للتجديد في نظر هذا المفكر يمكن أن يتبناه المجتمع كخيار للتغيير وكأسلوب للخروج من دائرة التخلف ينبغي أن تكون أفاقه وأهدافه تصب في اتجاه تحقيق غاية حضارية شاملة ومتكاملة.

سؤال التجديد عند مالك بن نبي يتمحور ويرتبط في جوهره المعرفي وفي عمقه التحليلي بفكرة البناء الحضاري التي شكل منها نقطة انطلاق في فهم وتحليل العوامل التي جعلت المجتمعات العربية تعيش وضعية تخلف وتأخر حضاري إنها نقطة انطلاق لتحديد و توضيح المنطلقات و المرتكزات التي تقوم وتبنى عليها شروط تحقيق نهضة عربية حقيقية وفعالة، ان مقاربة مالك بن نبي تقوم في بعدها المنهجي على أنه قبل الإجابة على أسئلة كيف نحقق أو نمارس عملية تجديد داخل المجتمع أو ما هي شروط وعوامل تحقيق التجديد أو أي مرتكزات تقوم عليها أي عملية تجديد يضع لنفسه اطار أو سياق مرجعي يؤسس عليه جميع إجاباته ويبني وفقه مختلف فرضياته وهذا الذي يجعل من تصوره ورؤيته تأخذ نوع من التميز و الاختلاف في مستواها الفكري والمنهجي عن باقي الأطروحات الأخرى التي عالجت نفس الموضوع.

الملفت للانتباه في فكر مالك بن نبي عامة وفي تناوله لإشكالية التجديد تحديدا هو اعتماده على مسألة أو فكرة البناء الحضاري كإطار مرجعي فلسفي أساسي يؤسس من

خلاله رؤيته للأبعاد المعرفية والجوانب المنهجية التي يتشكل على أساسها التجديد كفعل للتغيير ويبني انطلاقا منه تصوره في كيفية تفكيك وفهم هذه الأبعاد.

إذن جوهر التفكير وعمق التحليل وقوة التناول عند مالك بن نبي حول موضوع التجديد في المجتمعات العربية ينبغي في نظره أن ينطلق و يرتبط بفكرة الحضارة كمبدأ منهجي و كسياق فلسفي وكوعاء نظري يمكن أن يوفر الأدوات المفاهيمية الكافية والأدوات المنهجية التحليلية الضرورية التي تقوم على أساسها كل عمليات البحث في سؤال التجديد و كأنه يريد أن يقول لنا أن التفكير في أي مشروع للتجديد مهما كان نموذجه وكيف ما كان أسلوبه لا يمكن أن يحقق أهدافه العلمية أو يجيب عن مجاهله الفكرية أو يفكك بنياته النسقية إلا إذا وضعناه في علاقة مباشرة مع المسألة الحضارية بتعبير أكثر إجرائي مهما كانت طبيعة وحجم مشروع التجديد الذي نسعى إلى اعتماده وتطبيقه إذا لم تكن مخرجاته تصب في عمق إنتاج واقع حضاري شامل وكامل الخصائص والخصوصيات التي يستفيد منها أفراد المجتمع و يلبي حاجياتهم ويحقق آمالهم وطموحاتهم فانه يبقى مجرد طموح بعيد المنال ومشلول الكيفية وناقص الإبعاد بل يظل بعيد عن الأهداف الحقيقية لتطور المجتمع وقيامه بإقلاع نهضوي وانتقاله إلى مرحلة جديدة تكون أكثر رقي و ازدهار فتبقيه ضمن دائرة التخلف.

بل أن هذا المشروع يبقى مجرد تراكم كمي واجتماع شكلي لمجموعة من الأدوات والعمليات التي لا تتمكن في نهاية المطاف من ممارسة التأثير على الواقع المعاش ومن رسم تاريخ المجتمع حتى تمنح لوجود ومستقبل هذا الأخير حضورا فعلي في سيرورة البناء التاريخ للبشرية فينتزع بذلك موقع نوعي داخل ترتيب وتصنيف المجتمعات المتطورة،كل هذا الطرح بخصوص علاقة فعل التجديد بغاية البناء الحضاري في فكر مالك بن نبي يقودنا مباشرة إلى تسجيل عدد من الملاحظات التي تعطي وتؤكد على وجود

نوع من التميز والاختلاف في مقاربة هذا المفكر لظاهرة تخلف المجتمعات العربية وكيفية خروجه من هذه الوضعية نذكر منها ما يلي:

التجديد قبل أن يكون ممارسة هو مشروع للتغيير والانتقال من وضعية التخلف والتبعية إلى وضعية التطور والرقي تجسده مجموع مخرجات وانتاجات عمليات البناء الحضاري بامتياز وتعكس تجلياته الانتاجات الفعلية والعملية لتلك العمليات.

عندما نربط التجديد بفكرة الحضارة فهذا يعني أن المسألة في جانبها الإجرائي الميداني أشمل وأوسع من أن تكون مجرد تعبير عن عملية إصلاح أو تغيير جزئي ونسبي في أحد جوانب الواقع وفي بعض وظائف النسق. التجديد الحضاري حركية بنائية وديناميكية إنتاجية تمس مختلف ميادين الحياة الفردية والجماعية بل أن حدود مجال فعاليتها يشمل المستوى المادي والثقافي للمجتمع. وتصبح حقيقة دلالاتها تتعلق بقدرة وقوة المجتمع على إنتاج ورسم تاريخانيته.

هذا الأسلوب من الطرح بخصوص علاقة فعل التجديد بغاية البناء الحضاري في فكرمالك بن نبي يقودنا مباشرة إلى تسجيل عدد من الملاحظات الأساسية التي تعطي وتؤكد على وجود نوع من التميز والاستثناء في مقاربة هذا المفكر لظاهرة تخلف المجتمعات العربية أولا وكيفية خروجها وتخلصها من هذه الوضعية عبر خيار التجديد ثانيا ليس هذا فقط بل أيضا حتى نتمكن بكيفية مختصرة أن نضع حوصلة أولية وليس حصيلة نهائية لمجموع الأفكار والبنى المعرفية التي أنتجها المفكر مالك بن نبي بخصوص موضوع التجديد.

حوصلة الملاحظات بخصوص علاقة التجديد بالفكرة الحضارية:

لقد سمحت لنا عملية الارتباط الشرطي بين تحقق خيار التجديد وغاية البناء الحضاري من أن نقف على مجموعة من الاستنتاجات قمنا بصياغتها في شكل ملاحظات أساسية شملت النقاط التالية:

الملاحظة الأولى: التجديد حصيلة انتاجات وليس حوصلة توقعات

قيمة وأهمية التجديد ليس في كونه مجرد مشروع يحمل في مضمونه مجموعة من الخطط و البرامج ويرسم عدد من التوقعات و التطلعات ويوجه حملة من الخطابات و الشعارات للتغيير بل تتحدد و تتأكد جوانبه الفعلية وأبعادها الواقعية من خلال قيمة وأهمية انتاجاتها ومخرجاتها التي تصب في عمق تحقيق تطور ورقي حضاري للمجتمع يلبي حاجيات الأفراد ويحقق آمالهم وطموحاتهم في التواجد والاستمرارية وعليه تصبح غاية وأهمية التجديد أكبر من أن تكون مجرد توفير البنى الهيكلية القاعدية و تحسين القدرة الاستهلاكية المادية بل أنها مرتبطة أكثر بالقدرة على التخلص من التبعية و الخروج من دائرة التخلف والانحطاط بكل أنماطه و أشكاله والتحرر من قابلية الاستعمار كما يرى بن نبي، بمعنى أن عملية التفكير والبحث في أبعاد ومؤشرات إشكالية التجديد في نظر مالك بن نبي لا يمكن أن تصل إلى أهدافها أو تجيب على مجاهلها أو تفكك بنياتها إلى إذا وضعناها في علاقة وظيفية شرطية مع المسألة الحضارية بكل ما تحمله من معاني ودلالات ليس فقط فلسفية بل أيضا سوسيولوجية وتاريخية.

الملاحظة الثانية: التجديد غاية وليس وسيلة

بالنسبة لمالك بن نبي التفكير في سؤال التحديد يتطلب النظر الى الموضوع من زاوية أنه غاية في حد ذاتها وليست مجرد وسيلة ما دام أن قيمة المجتمع وقياس درجة قوته وحجم تطوره تعكسه مخرجات عملية التجديد وتؤكد عليه انتاجاتها العملية وتجلياتها وتمظهراتها الواقعية وهذا ما نعبر عليه بالفعل الحضاري أضف إلى ذلك أن قيمة الوسيلة وأهمية فعاليتها لا يمكن الكشف عنها والحكم عليها إلا من بعد ما تتحقق الغاية. أن معطى الغاية أسبق وأكبر وأشمل قيمة وأهمية من الوسيلة قد نضطر إلى تغيير أو تعديل الوسيلة مع الإبقاء على نفس الغاية أنها السمة الملازمة لجميع المجتمعات البشرية وموازية لحركة التاريخ في ديناميكيته وتطوره.

وكأن المسألة في نظر مالك بن نبي تفقد أهميتها وقيمتها الحقيقية إذا لم تكن مخرجاتها وانتاجاتها تصب في عمق إنتاج وتحقيق غاية حضارية ينتقل بموجبها المجتمع إلى مرحلة من التطور والرقي المادي والفكري فتكسبه قوة الوجود وقدرة الاستمرارية يقول بن نبي الحضارة هي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تسمح للمجتمع من أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية الأزمة لتطوره.

الملاحظة الثالثة: التجديد بناء وإنتاج وليس تراكم وتكديس

وأنت عندما تضع هذا الارتباط وهذه العلاقة الوظيفية والشرطية لفعل التجديد بالغاية الحضارية فانك تؤكد وبدون أي شك أن المسألة في جوهرها ليست مجرد توظيف لأدوات أو تسخير لإمكانيات أو حتى تكديس لإنتاجات هذا ما يعترف به مالك بن نبي في كتابته عندما يقول صراحة أن الحضارة هي الناتج الحاصل ضرورة في حركة المجتمع و هي حركة شاملة في مجال الفكر والاقتصاد، بل هي اجتهاد فكري أولا وبناء عملي ثانيا يمارسه المجتمع على أدواته و قبل ذلك هو وعي واقتناع بضرورة البحث و العمل على إنتاج الجديد المرغوب عوض الحصول على المفقود المفروض حتى ولو كان من تراثنا الممدوح المشكلة ليست في فراغات نملؤها أو فضاءات ننتمي إليها أو منتجات ومستلزمات نستوردها لأن هذا الشكل من التحول لا يحقق سوى حضارة شيئية كما يقول بن نبي القائمة على التكديس للأشياء ومنتجات حضارة مجتمع آخر أنها ليست بناء (بن نبي، 2000، ص 44). وإنما تخلف وتأخر ينبغي محاربته ومقاومته وتبعية يمكن فكها وتفكيكها حتى نعوضها بتطور نمتلكه ورقي نتحكم في أدواته ونستفيد من انتاجاته لكن هذا لن يتأتى إلا من خلال قوة العمل واشتغالها وعبر قيمة التفكير وتوظيفه.

يقول بن نبي المجتمعات التي ليس لها حضارة أو التي لا تبني حضارة هي ساكنة لان لديها حياة بدون غاية.

شرط البناء المرتبط بعملية التجديد المستمر الهادف هو الذي يجعل من انتاجات الحضارة ماديا وفكريا تصبح غاية وأسلوب. فتدفع بالمجتمع وأفراده إلى أن يكونوا فاعلين ومؤثرين فيها ومنتجين لها ومحددين لشكلها ومختارين لنمطها ومستفيدين من روحها أو العكس بعد ما يتأخر ويتراجع عن امتلاكها والتحكم فيها يتحول إلى متأثر بها ومستهلك لمادتها وغير متحرر من تداعياتها السلبية ومستلب في قواعدها هنا بالذات يفقد المجتمع خصوصيته كبنية اجتماعية قائمة بذاتها ومستقلة في حراكيتها فينزلق نحو وضعية من التأخر والتخلف بعيدة في واقعها عن الحضارة ومنفصلة في شروطها عما هو تقدم لأن المقياس العام في عملية الحضارة كما يرها مالك بن نبي هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها.

الملاحظة الرابعة: التجديد تغيير وتغير وليس إصلاح وتحول

إن تخلف المجتمعات العربية وتأخرها مرده في نظر بن نبي ليس عجزا أو خلل جزئي في منظومتها الأخلاقية العقائدية فقط أو تأخرا في مجالها الاقتصادي أو عجزا في نظامها السياسي وإنما هو عجز وفشل في قدرتها على بناء حضارة بأكملها، إنه ضعف وتدهور يدخل هذه المجتمعات ويبقيها ضمن دائرة التخلف والتبعية والخضوع لسلطة الآخر الأكثر قوة وتطور.

لهذا جاءت رؤية وقراءة مالك بن نابي للكيفية التي يمكن بموجبها تجاوز وضعية التخلف والانحطاط التي يعرفها المجتمع العربي تختلف عمن سبقوه من المصلحين والمجددين أمثال محمد عبده الذي كان يتصور أن حل مشكلة التخلف مرتبط بإصلاح العقيدة والوعظ نفس التوجه اعتمده جمال الدين الأفغاني عندما ذكر أن مشكلة تخلف المجتمعات العربية ترجع في سببها إلى وجود خلل سياسي وبالتالي حلها لا يكون إلا عبر وسائل سياسية. جميع هؤلاء لم يتعاملوا مع أصل الأزمة أي مع منبع المرض في حد ذاته وإنما اكتفوا فقط بأعراض المرض من أجل التقليل من حدة الألم وهذا لن يعالج المشكلة لأن عملية التجسيد لأي مشروع تجديد في مستوى أسلوبها هي أكثر من أن تكون مجرد إصلاح

تربوي أخلاقي أو تحول بنائي هيكلي، إنها سيرورة لعمليات تغيير وتغير بأكمله يشمل جميع المجالات المادية و الفكرية و الجمالية المرتبطة بحياة الفرد و المجتمع ككل بل إن المسألة أعمق من أن تكون مرتبطة بأزمة عقيدة يقول بن نبي في رده على الاصطلاحين المشكلة ليست في أن تعلم المسلم عقيدة هو يمتلكها وإنما المهم أن ترد إلى هذه العقيدة فعاليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي.

التجديد ليس فكرة ميتافيزيقية أو مذهبا ايديولوجيا وإنما هو منهجا فكريا ونمطا عمليا منطلقه الأساسي التغيير الذي يؤثر في الواقع ويخطط للمستقبل ولأن المشكل ليس في العقيدة وإنما في الذات المتمسكة بهذه العقيدة ولهذا ينبغي أن نوجه النقد نحو الذات ولك أن تلاحظ حجم الجهد الذي يبذله والاجتهاد الذي يخصصه المسلم لممارسة العبادات مقارنته بما يخصصه من وقت وتفكير وما يسخره من جهد وتضحية ونضال للابتكار والإبداع لخدمة المجتمع والشأن العام.

التجديد تغيير فعلي وفعال تسمح نتائجه من تحقيق انتقال نوعي والوصول الى قفزة كيفية في تاريخ ومسار التطور الفكري والمادي للمجتمع فالعملية لا تقتصر فقط على أهداف نرسمها أو خطابات نلقيها أو أحلام نبيها بالقدر ما هي متعلقة بأدوار نؤديها ورهانات نجسدها وتحديات نقاومها ونتجاوزها يقول مالك بن نبي في هذا الصدد التجديد هو جملة العوامل المعنوية والمادية التي تسمح للمجتمع بأن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية الأزمة لتطوره .

قمة وقيمة التجديد هي في التوصل لبناء حضارة يرقى بها المجتمع إلى منافسة باقي المجتمعات الأخرى فيتمكن من وضع بصمته وتوقيعه ضمن سجل تاريخ البشرية حتى يكشف عن قوته المادية وقيمته الاجتماعية الثقافية فيصنع لنفسه هوية وموقعا بين باقي المجتمعات يقول بن نبي المجتمعات التي لا تجدد ولا تبني حضارة هي مجتمعات ساكنة لا تاريخ لها أما المجتمعات الديناميكية فهي التي لها حركة أي لها تاريخ.

الملاحظة الخامسة: التجديد فكرة وليست أدوات

منبع كل تجديد ومصدر كل تغيير يهدف إلى التأسيس لبناء مشروع حضاري نجده في الفكرة التي يحملها بل ويؤمن بها الأفراد فتحدث ثورة في الأذهان قبل الأبدان والأشياء فتزيح الأوهام والأصنام من العقول لتترك المجال للأنوار والأحلام التي تبعد الظلمات وتنير الطرقات، التجديد فكرة وسلطة مختلفة وملهمة تسكن عقول الأفراد فتمنحهم القدرة على بناء التصورات والتمثلات وإنتاج المعاني والدلالات بخصوص الموضوعات التي يتأثرون بها ويؤثرون فيها. لقد شبه مالك بن نبي الوضعية التي لا تفعل فيها الأفكار بمرحلة الوثنية في الإسلام التي ينظر اليها على أنها جاهلية لهذا يصبح الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب انصابا (بن نبي، 1987، ص 46).

غياب الفكرة أو تغيبها يعيق كل فرصة أو إرادة في التجديد ويمنع كل محاولة في التغيير بل يصنع من الأفراد ذوات مسالمة ومستسلمة لواقعها ومصيرها حتى لا نقول لها قابلية للاستعمار ليس فقط بمعنى الخط الأجنبي وإنما بمعنى التهديد الواسع مهما كان مصدره الفكرة بمثابة الروح التي تسكن عقول الأفراد فتعطي حياة لأجسامهم وأفعالهم، أنه تحرك فيهم الرغبة في العمل بحثا عن الأفضل والأحسن.

لا يقاس غنى المجتمعات بكمية ما تملك أو تختزن من أشياء وثروات بل بمقدار ما تنتج من ثقافة وأفكار وما توظف من نقاش وحوار. متى ما امتلكت الفكرة وما تنتجه امتلكت القوة والسلطة.

كيف ما كان حجم الأدوات وطبيعة الإمكانيات فأنها لا تستطيع أن تحقق جديدا أو تجديدا إذا فقدت أو غابت عنه الفكرة ليس فقط لأنها تحرر العقول أو لأنها تسمح بتحديد واختيار الأداة وتوجيهها وتفعيلها وإنما أيضا لأنها تنتج وتركب لدى مخيلة الأفراد معنى ودلالة للمشروع ولعلاقته بالأداة فقد تتشكل بذلك رغبة وعزيمة لضرورة وأهمية تجسيده فيتحقق

الإيمان بقيمة المشروع في حياة الأفراد ومستقبلهم حتى يتأسس اعتقاد بإلزامية الوصول بالمشروع إلى غايته.

**4. خاتمة:**

إن مشروع فعل التجديد باعتباره سيرورة مستمرة من العمليات المنتظمة الهادفة الى الانتقال نحو الأحسن والأفضل قد يكون في مستواه الاشتغالي البنائي متعدد الشروط والأدوات و مختلف الانتاجات والمخرجات متنوع الأساليب والطرق كل حسب سياقه التاريخي والمكاني ووفق مرجعيته القيمية والثقافية لكنه يبقى في مستوى غايته النموذجية وآفاقه المستقبلية لا يخرج عن إطار وسياق غاية واحدة وأساسية ممثلة في بناء وتجسيد معالم الحضارة بكل مكوناتها المادية والرمزية، أنه العنصر الذي يعطي للمجتمع وجودا وسلطة بل قوة وفعالية في بعده ومساره التاريخاني.

هذا المنطق في الاشتغال وفي تحديد نمط علاقة القوى البعيد عن كل ما هو مبدأ أخلاقي أو علاقة إيديولوجية نسبية يصبح كل نموذج أي مشروع للتجديد مهما كان ميدانه ومجاله يقوم في أدائه وأهدافه على الخصائص التالية:

- قيمة التجديد هي في انتاجاته ومخرجاته.
- فعالية التجديد هي في فكرته وأسلوبه البنائي الحضاري.
- واقعية التجديد هي في كليته وشموليته.
- عقلانية التجديد هي في استمراريته وديمومته.

**5. قائمة المراجع:**

**المراجع باللغة العربية:**

بن نبي، مالك .(1987 ) .*ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية*. (عبد الصبور شاهين، ترجمة) .دار الفكر الجزائر.

بن نبي، مالك.(2000). *مشكلة الثقافة*. (عبد الصبور شاهين،ترجمة). دار الفكر دمشق.

بن نبي، مالك.(2005). *من أجل التغيير*. (عبد الصبور شاهين، ترجمة). دار الفكر دمشق .

بن نبي، مالك .(1989). *تأملات*. (عبد الصبور شاهين، ترجمة). دار الفكر المعاصر دمشق.

بن نبي، مالك .(1987).*شروط النهضة*. ( عبد الصبور شاهين،ترجمة). دار الفكر دمشق.

بوبكر ، جيلالي .(2015).*موانع التجديد الحضاري في فكر مالك بن نبي* ،مجلة دارسات إنسانية واجتماعية جامعة وهران ،عدد (05).

بريون ، فوزية .(2010).*مالك بن نبي عصره حياته ونظريته في الحضارة*. دار الفكر دمشق.

**المراجع باللغة الأجنبية:**

Abdel Kader, Bouarfa.(2019). *Malek ben nabi une vie une œuvre un combat*. éd distribution.